الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- قسنطينة

كلية الشريعة والاقتصاد **قسم الفقه وأصوله**

الندوة العلمية المتخصصة: البيوتات العلمية الجزائرية ودورها في الحفاظ على المذهب المالكي

عنوان المداخلة: مدخل مفاهيمي: مصطلح البيوتات العلمية دلالاتها، نشأتها وخصائصها.

الدكتورة: سعاد رباح **ط: عبد الرحمن جلاب**

كلية الشريعة والاقتصاد قسم الفقه وأصوله **طالب دكتوراه**

ملخص:

يتناول هذا البحث موضوع مصطلح البيوتات العلمية ودلالته وأسباب نشأتها وازدهارها وكذا خصائصها، ذلك قصد إثراء البحث في تاريخ هذه الأسر العلمية ومعرفة أسباب بروز هذه الظاهرة في تاريخ المغرب الإسلامي وبالخصوص في الحواضر الجزائرية التاريخية.

فتناول هذا البحث تعريف البيوتات وبحث مدلولات هذا المصطلح وتطوره ثم عرجت على عوامل ظهور هذه الدور العلمية وازدهارها بعدما تطرقت إلى تاريخ نشأتها وختمته بالتكلم عن خصائصها العلمية والغير علمية،
و توصلت إلى أن مالكية المغرب الأوسط قد امتازوا بأسر علمية فذة خدمت المذهب وعملت على دوامه في مختلف الحواضر العلمية الجزائرية.

الكلمات المفتاحية: البيوتات العلمية.

Summary
This research focuses on the concept of scientific families and their significance, origins, and flourishing, as well as their characteristics. The aim is to enrich the study of the history of these scientific families and to understand the reasons behind the emergence of this phenomenon in the Islamic history of Morocco, particularly in historical Algerian cities. The research defines scientific families and explores the meanings of this term and its evolution. It also discusses the factors that led to the emergence and flourishing of these scientific institutions, and delves into their history. The research concludes by discussing their scientific and non-scientific characteristics. It reveals that the Maliki school of thought in the central region of Morocco was characterized by distinguished scientific families that served the doctrine and perpetuated it in various Algerian scientific cities.

Keywords: scientific families.

تمهيـــــد

تشبث علماء المغرب الإسلامي عموما ومنهم الجزائريون خصوصا بالمذهب المالكي وأحاطوه بعناية فائقة، إن تأليفا أو فهما أو تدريسا أو تطبيقا في الأقضية والأحكام وما ينزل بالناس من نوازل[1]، هذا المذهب التي تعدّ أصوله من أقوى الأصول وأوضحها، مما جعل المالكية يصمدون أمام بقية المذاهب الفقهية والعقدية الأخرى، التي حاولت إزاحته عن مناطقه من قبل.

فقد استطاع هذا المذهب بفضل علمائه أن يفرض نفسه أيام دولة العبيديين الإسماعليين الشيعة، كما استطاع أن ينتصر على المذهب الظاهري رغم تأييد السلطة الموحدية لهذا الأخير[2]، وتضييقها على المذهب المالكي بحصارها للعلماء ومنعهم من الإفتاء به، وحرقها للمدونة وكتب الفروع فيه. ومع ذلك فقد قاوم علماء المالكية وثبتوا في نصرة مذهبهم، وبذلوا النّفس والنفيس ليخدموه، فكرّسوا حياتهم وعقولهم وأقلامهم ومناصبهم، وحتى بيوتهم وأسرهم لنشره واستمراره بين الناس في كل المغرب عموما، والجزائر خصوصا، فقد كانت المرجعية المالكية هي المتحكمة في فتاوى فقهاء المغرب الإسلامي، بل حتى على سلوكياتهم لا يحيدون عنه لغيره، إذ يرون فيه صمام الأمان لهم من الفرقة والفتن، وظهر ذلك في آرائهم حول الإمامة والعلاقة بين الرّاعي والرعية، واعتزال الفتن وطاعة ولاة الأمور في المعروف، وعدم إعانة الخارجين على السلاطين[3]، وغيرها من المسائل التي تمسكوا بها ضمن الفقه المالكي الواسع.

لقد أنتجت البيئة الفكرية لمدن وحواضر الجزائر عددا من البيوتات العلمية التي كان لها دور في المحافظة على استقرار وبقاء المذهب المالكي، وصموده أمام المحن والشدائد التي كادت أن تقضي على وجوده في المغرب الإسلامي عموما، و ظهرت تجليات حبهم لهذا المذهب وتفانيهم في خدمته في أعمال كثيرة حفظها لهم التاريخ على مر الزمن.

وقد اشتهرت الجزائر منذ القدم بحواضر العلم والعلماء، حيث ضمّت بين جنباتها بيوتات اهتم أصحابها بالعلم والفقه على مذهب مالك –رحمه الله-، وتعليمه لأبنائهم منذ نعومة أظافرهم، فأنشأ الله منهم جيلا من العلماء النبلاء الذين تميّزوا بالفضل والفهم والنجابة والرفعة، وترعرعوا على حب المذهب والتشبث به، وورثوا ذلك أبنائهم، فتسلسل

---

[1] محمد المامي، المذهب المالكي، مدارسه ومؤلفاته وخصائصه، ط1، الإمارات المتحدة، مركز زايد للتراث، 2002، ص93، 127

[2] محمد المنوني، حضارة الموحدين، ط1، دار توبقال، الدار البيضاء ، 1989، ص37.

[3] _البرزلي، نوازل البرزلي، تحقيق: محمد الحبيب هيلة، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2002، ج6، ص178.

فيهم أبا عن جدّ وخلفا عن سلف ولاحقا عن سابق، أفنوا أعمارهم في خدمة المذهب المالكي والذبّ عنه بكل ما أوتوا من قوّة وعلم وجاه ومناصب عالية ضد كل من يريد طمسه أو مزاحمته، من أهل الفرق والمذاهب الأخرى.

فقد شغل علماء مدن وحواضر الجزائر سواء كانوا من البيوتات العلمية المعروفة فيها، أو غيرهم لوظائف مهمة ومرموقة وذلك في العصر الوسيط وما تلاه من عصور، مثل القضاء والفرائض والإفتاء، والتوثيق أو ما يسمى بالفقه التطبيقي، حيث استخدم فقهاء المالكية هذه الوظائف لخدمة المذهب ونشره، بتطبيقه أحكاما وفتاوى، وتدريسه وتعليمه للناس.

الإشكالية:

ما هي حقيقة مصطلح البيوتات العلمية ومدلوله وعوامل ازدهارها وخصائصها؟

منهج البحث:

لدراسة هذا الموضوع اتبعت المنهج التاريخي لمعرفة نشأة هذه البيوتات و تطور مدلوله واتبعت المنهج التحليلي للكشف عن عوامل ازدهارها وخصائصها.

أهداف البحث:

معرفة حقيقة مصطلح البيوتات العلمية.

معرفة مدلول مصطلح البيوتات العلمية.

معرفة نشأة البيوتات العلمية و عوامل ازدهارها.

معرفة خصائص هذه البيوتات العلمية.

أولا: مفهوم البيوتات العلمية:

1- لغة:

يقول ابن منظور:"البيوتات جمع بيوت، ومفرده بيت، فيقال بيت العرب أي شرفها، والبيت من بيوتات العرب الذي يضم شرف القبيلة فتقول فلان بيت قومه بمعنى شرف قومه[4].

وذهب الفيروز أبادي أن البيت جمع أباييت وبيوت وتجمع بيوتات أي الشرف والشريف[5] الشرف والمجد يكونان بالآباء. يقال: رجل شريف ماجد، له آباء متقدمون في الشرف، والحسب والكرم يكونان في الرجل وإن لم يكن له آباء لهم شرف[6].

4 ابن منظور أبو الفضل محمد بن مكرم بن على الأنصاري الرويفعى، لسان العرب، تح:عبد الله علي الكبير، دار المعارف، القاهرة ج01،ص393.

5 مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تح: محمد نعيم قسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، لبنان، 2005، ص148.

6 ابن منظور،المرجع السابق،ج3، ص395.

وإذا قلنا أن فلان أو ذاك من أهل البيوتات فنقصد بذلك أنه من بيت كريم، وقد يحمل مدلولا آخر على أن البيت نعني به المرأة والعرس، فإذا قلنا لأي شخص هل لك بيت؟ فنقصد بذلك امرأته[7].

وجاء في المعجم الوسيط البيت في العموم المقصود به المسكن الذي يأوي إليها الإنسان، وقد يعني البيت كذلك عيال الرجل ويقصد به أيضا المرأة[8]، ولمصطلح البيوتات مرادفات عدة كالأسر والعيال[9].

2- اصطلاحا:

إن التعاريف اللغوية الدالة على معنى الشرف في مصطلح البيوتات لها علاقة وطيدة بالمعنى الاصطلاحي الذي لا يخرج عن هذا المفهوم عموما، وإن كان المعنى اللغوي للشرف متعلق بمجد الآباء ومآثرهم دون الأبناء، بينما المعنى الاصطلاحي يشمل مآثر الآباء وإنجازات الأبناء.

والجدير بالذكر في هذا المقام أن لهذا المصطلح مرادفات عدة منها الأسر والدور وهو المعمول به من طرف المغاربة كما أما المشارقة يغلب عليهم مصطلح العوائل والأسر[10].

أما ما يخص بالتعريف الاصطلاحي فقد ذكر ابن خلدون في مقدمته:((**ومعنى البيت أن يعدّ الرّجل في آبائه أشرافا مذكورين يكون له بولادتهم إيّاه والانتساب إليهم تجلّة في أهل جلدته لما وقر في نفوسهم من تجلّة سلفه وشرفهم بخلالهم**))[11]، أي أن يكون لهذا الرجل آباء سبقوه، لهم من الشرف والجاه ما رفعه بين الناس بمجرد انتسابه لهم، فهذا التعريف بين أن البيت لا يطلق إلا على من حازوا الشرف والرفعة بين الناس بأعمالهم وسوابقهم، وبين أن هذه الميزة يجب أن تستمر إلى الأبناء حتى تعد هذه العائلة من البيوتات، لكنه رحمه الله تعالى لم يصرح بأنه يجب كذلك على الأبناء تحصيل ذلك الشرف بجهدهم الذاتي دون الاكتفاء بما ورثوه عن آبائهم.

---

7 الزمحشري، أساس البلاغة، تح: عبد الرحيم محمود، بيروت دار المعرفة، دت، ص34.

8 عطية شعبان عبد العاطي وآخرون، المعجم الوسيط، القاهرة، مكتبة الشروق العربية، 2004، ص78.

9 زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، مختار الصحاح، بيروت، دائرة المعارف، 1986، ص28.

10 جميلة عثماني، خدوجة مبخوتي،البيوتات العلمية ودورها السياسي في الجزائر العثمانية بيت الفكون أنموذجا1815م-1837م،(مذكرة الماستر)،اشراف أ.عبد الله بابا، تخصص: التاريخ الحديث والمعاصر، قسم العلوم الإنسانية، كلية كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أحمد دراية أدرار- الجزائر- ص6. ملاحظة أحالت صاحبتا المذكرة إلى رسالة الدكتوراه"ظاهرة البيوتات الأندلسية ودورها الثقافي أمحمد بوشريط" فعدت إليها ولم أجد هذه المعلومة.

11 أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط02، 1408 هـ - 1988 م، ج1، ص167.

و يضع النسابة عبد الكبير بن هشام الكتاني تصورا للبيت بأنه: ((**المشهور بالعلم والثروة والجود والشجاعة ونحو ذلك ولا يعدوا في الغالب أربعة آباء**))[12].

والملاحظ على هذا التعريف أنه فصل المعنى المقصود من كلمة الشرف التي ذكرها ابن خلدون من قبل بأنها **العلم والثروة والجود وكذا الشجاعة** وكأنه يصرح أن من شروط البيوتات أن تجمع بين **التفوق العلمي والتفوق المادي و التفوق الخلقي**، كما بين أن الأسرة لا تعد من البيوتات ما لم يتوارث هذا الشرف أربعة آباء في الغالب كحد أقصى إلا ما ندر.

وقد أضاف - عبد الكبير بن هشام الكتاني- قائلا: ((وقد ذكرت البيوت عند عبد الملك بن مروان فقال: هو ما كانت له سابقة ولاحقة وعماد الحال وإمساك الدهر فإن كان كذلك فهو بيت" يريد **بالسابقة**: ما سلف من شرف الآباء و**باللاحقة**: ما لحق من شرف الأبناء، و**بعماد الحال**: الثروة و**بإمساك الدهر**: الشخص الذي يمسك بالدهر بجاهه...))[13].

أما ما أثر عن عبد الملك بن مروان فهو يصلح للبيوت الحاكمة و السياسية كونه لم يذكر العلم كمكون لها بل ركز على الثروة والجاه وتناقلهما من الآباء إلى الأبناء إلى من بعدهم.

ومما سبق فمعنى البيت العلمي لا يخرج عن كونه **"إرث من الصفات الفضلى تتجلى في خصال كثيرة منها الجود والعلم والشهامة والتقدم في الناس لإصلاح شأنهم وتيسير أمرهم ويكون ذلك متواصلا في الحاضر فمتى تخلف عن هذه الصفات فقد صفة البيت حتى يعود"**[14].

أما تحديد عدد الآباء بالأربعة فهو في الغالب على ما أقره ابن خلدون وإلا فقد يندثر البيت من دون الأربعة وقد يمتد إلى الخامس والسّادس، ووجه قول ابن خلدون"أن الأول هو باني المجد عالم بما عاناه في بنائه ومحافظ على الخلال الّتي هي أسباب كونه وبقائه وابنه من بعده مباشر لأبيه فقد سمع منه ذلك وأخذه عنه إلّا أنّه مقصّر في ذلك تقصير السّامع بالشّيء عن المعاني له ثمّ إذا جاء الثّالث كان حظّه الاقتفاء والتّقليد خاصّة، فقصّر عن الثّاني تقصير المقلّد عن المجتهد ثمّ إذا جاء الرّابع قصّر عن طريقتهم جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها وتوهّم أنّ ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلّف وإنّما هو أمر وجب لهم منذ أوّل النّشأة بمجرّد انتسابهم وليس بعصابة ولا بخلال لما يرى من التّجلّة بين النّاس .... فيحتقرهم بذلك فينغّصون عليه ويحتقرونه ...و ينهدم بناء بيته -إلى أن قال-وقد اعتبرت الأربعة في نهاية الحسب في باب المدح والثّناء قال صلّى الله عليه وسلّم:((**إنّما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**))[15] فهذا ما يدل على أنه بلغ الغاية في المجد والسؤدد"[16].

---

12 عبد الكريم بن هاشم الكتاني، زهر الآس في بيوتات أهل فاس، تح: علي بن المنتصر الكتاني، دط منشورات النجاح الدار البيضاء،2002، ج1، ص45 .

13 المرجع نفسه، ج1 ص45.

14 الطاهر بونابي، بيت ابن باديس في العصر الوسيط، مقال، دت، ص13.

15 البخاري، الأدب المفرد، بيروت، ط3، 1989، دار البشائر، ص212- 308.

16 ابن خلدون، المرجع السابق، ج01،ص171.

أما في القرآن الكريم فقد ورد مصطلح البيوتات منفردا - البيت - كقوله تعالى: {**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**} [الأحزاب: 33] كما ورد مصطلح آل في القرآن بمعنى البيوت الكبيرة كما في قوله تعالى: {**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**} [آل عمران: 33] فالله تعالى ذكر هذه البيوت العظيمة لما احتوت عليه من رجال حازوا الرفعة والمكانة العالية عند الله تعالى وتسلل هذا الفضل في ذراريهم.

ومما سبق يتبين لنا أن مصطلح البيوت العلمية مبني على عدة مرتكزات هي:

- أن يحوي عدة آباء متتاليين، فخرج به الآباء المتقطعين كأن يبرز فيهم عالم ثم ينقطع ذلك حتى يظهر من بعده أحد أحفاده المباشرين أو الأباعد.
- أقلهم اثنان، فخرج به البيت الذي نبغ فيه عالم واحد فلا يسمى ذلك بأحد البيوتات العلمية اصطلاحا.
- أن يكون كل من هؤلاء الآباء عالما مشتغلا به تدريسا، إفتاء و تأليفا، فخرج به أول حفيد –ومن بعده- من هذه السلسلة قد ضيع العلم فلا يعد من جملة هذه الأسرة العلمية.
- أن يحصل كل واحد منهم الشرف والرفعة بين الناس فخرج به من ورث هذا الشرف ولم يعمل على صناعة مجد خاص به فلا يعد من هذه البيوتات.
- أن تكون لهم الكلمة بين الناس في زمنهم فخرج به أحفادهم من بعدهم الذين لم يسيروا على طريقهم فلا يسمون حينها بيت علم.

لذا المقصود بالبيوتات العلمية: **"الأسر التي أنجبت العديد من العلماء أبا عن جد ومارسوا العلم تدريسا، تأليفا وإفتاء وحازوا الشرف بإنجازاتهم في زمنهم"**.

ثانيا:دلالة مصطلح البيوتات العلمية.

مما تقدم ندرك أن الأسر العلمية هي من اشتغل أبناؤها بالعلم أبا عن جد مع تحصيلهم للشرف والجاه بين الناس لسوابق الآباء ولواحق الأبناء، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الأسر العريقة لم تكن على نفس القدر في الشرف والتاريخ فكان لزاما تصنيفها لبيان البيوتات ذات الباع الطويل والبيوتات ذات الباع الأقل، فقسمها د. نصر الدين داود في أطروحته المتعلقة ببيوتات علماء تلمسان بين القرن 7هـ - 10هـ إلى بيوتات كبرى وأخرى صغرى مستندا في تصنيفه إلى أن[17]:

البيوتات الكبرى: هي التي أنجبت أكثر من ثلاثة علماء واشتهروا بكثرة إنتاجهم العلمي وكانت لهم نشاطات في شتى الميادين، كبيت العقباني الذي أنجب أكثر من خمسة علماء منهم الأب سعيد العقباني، والابن قاسم العقباني، والأحفاد منهم أحمد ومحمد وإبراهيم العقباني وغيرهم

[17] نصر الدين بن داود، بيوتات علماء تلمسان من القرن7ه إلى القرن10هـ، أطروحة دكتوراه،قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية، جامعة أبوبكر بلقايد-تلمسان- السنة الجامعية 2009م-2010م، ص57.

وكلهم عرف بالقضاء والحسبة وبيت المرازقة الذي كان أشرفهم عددا بـ ثمانية علماء واشتهر منهم ابن مرزوق الجد والحفيد والكفيف وحفيف الحفيد والخطيب.وبيت المقري بداية بالجد محمد وابن عمه أبو الحسن علي المقري، والأحفاد سعيد وأحمد المقري، وبيت الشريف التلمساني بداية بالأب محمد بن أحمد الشريف التلمساني ومرورا بالأبناء عبد الله وعبد الرحمان ابنا محمد الشريف وختاما بالحفيد قاضي الجماعة أحمد بن أبي يحيى بن محمد الشريف وبيت ابن زاغوا الذين خدموا التفسير و الفرائض والرياضيات وغيرها فاشتهر منهم الجد عبد الرحمان بن زاغ والأحفاد علي وأحمد ومحمد بن أحمد بن زاغوا.

أما **البيوتات الصغرى:** هي التي أنجبت الثلاث فأقل بحيث كانت مساهماتهم في الإنتاج الفكري و العلمي أقل مقارنة بنظيراتها الكبرى مثل بيت التنسي وبيت أولاد الإمام الذي أنجب علماء أجلاء كانت لهم شهرة ذائعة الصيت.

وهذا التقسيم مبني على اعتبار عدد العلماء داخل الأسرة مع الاتفاق أن جميعهم كانوا رجال علم وفقه، وهناك تقسيم آخر لهذه البيوتات وهو راجع للفترة الزمنية التي عاشوا فيها خاصة في عهد الخلافة العثمانية الذي كانت الدولة فيه مبنية على الفقه والتصوف في كل مظاهر حياتها، فظهر مركب جديد بشكل واضح دخل على الفقهاء وطلاب العلم عموما و البيوتات العلمية خصوصا وهو التصوف، فنجد في هاته الفترة الفقيه يدرس التصوف، والمتصوف يطلب الفقه، وهناك من غلب عليه الجانب الفقهي وآخر غلب عليه الجانب السلوكي وهناك من أخذ التصوف دون فقه، وهناك من درس الدين وكان من رجالات الدولة كرجال القضاء والحسبة وغيرهما، وهناك من خدم الدين ولم يلتحق بالبايلك كبعض الأسر منها أسرة سيدي الشيخ، لكن كل هؤلاء كانوا يسمون علماء في تلك الفترة، فكان لابد من استحداث تقسيم جديد، "فلو أخذنا العالم بالمفهوم الواسع للكلمة في ذلك العهد لكان كل من سبق علماء وبيوتاتهم بيوت علم لأنهم كانوا يورثون مناصبهم وألقابهم لأبنائهم جيلا بعد جيل"[18].

فقسمهم شيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله[19]:

النوع الأول كتاب الإنشاء أو الخوجات، والثاني المثقفون الأحرار، والثالث المرابطون.

فأما **النوع الأول** فقد كان أصحابه يكتبون للباشوات والبايات ويسجلون محاضر جلسات الديوان والمفاوضات والمعاهدات مع الدول الأخرى...و رغم أن هذا النوع يدخل فيما نسميه اليوم بالإدارة والبيروقراطية فإن انتماء أصحابه إلى أهل العلم يجعلنا نتحدث عنهم هنا وندرجهم ضمن فئة العلماء.

---

[18] فوزية لزغم، البيوتات و الأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي1520م-1830م، أطروحة دكتوراه تخصص التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2013م-2014م، ص40.

[19] أبو القاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر للنشر والتوزيع- الجزائر- 2007 م،ج01، ص397.

وأما **النوع الثاني المثقفون الأحرار**: فلا ريب أنهم يندرجون في فئة العلماء أيضا ولكن غير موظفين. وكان هؤلاء أكثر كفاءة من زملائهم الفقهاء في الغالب، وأخيرا هناك **المرابطون**.

والذي يهمنى هو المعنى الخاص المتعلق بالعالم الحق المشتغل بالفقه وعلوم الدين العامل بهما في حياته المورث لهما لمن بعده، لذا فكل من الموظفين الرسميين والفقهاء الأحرار كان فيهم الراسخ في العلم ومنهم المشارك فيه أما **''المرابطون و الصوفية منهم العلماء العاملون الربانيون الذين غلب عليهم الاشتغال بالتزكية والسلوك كسيدي عبد الرحمن الثعالبي وسيدي محمد بن يوسف السنوسي ومنهم المشارك فيه كسيدي محمد الهواري و سيدي أحمد المليانى و سيدي إبراهيم التازي"**[20]، ومنهم من عرف بالصلاح والتقوى لكن لا بضاعة علمية له.

و مع هذا التصنيف لا يمكن التحقق من كون كل من اشتهر بالعلم والفتوى عد عالما فحتى هم رحمهم الله في زمنهم كان ذلك الصراع بين فقهاء الحضر والريف، فرجال الريف "يعتبرون أهل حضر يسكنون المدن ويفكرون بالمادة ويتعلقون بالمصالح التي تدر عليهم المال والجاه – وأن مناصبهم التي بلغوها ليس لكفاءتهم العلمية بل وراثة يحاولون الحفاظ من خلالها على مصالحهم-. وكانت لدى علماء الحضر مشاعر الترفع على علماء الريف، رغم أن عددا منهم قد جاء من الأرياف كجبل زواوة وميلة ونقاوس والونشريس وغيرها، غير أن العائلات الحضرية العريقة كانت تعارض تولي علماء الريف الوظائف الكبيرة –بحجة أن بضاعتهم العلمية قليلة-، وكان هذا واضحا في قسنطينة وتلمسان" [21].

وبالتالي يمكن تقسيم هذه البيوتات [22]إلى:

بيوتات دينية: فعمل أبناؤها على نشر التصوف والأذكار و أوراد الطريقة التي ينتمون إليها وخدمة الزوايا بالدرجة الأولى.مثل أسرة التيجاني وأولاد سيدي الشيخ وإن كانت انطلاقة هذه الأخيرة انطلاقة علمية سبرها سبر بيت سيدي عبد الرحمان الثعالبي ثم صارت دينية بحتة.

بيوتات علمية صوفية: جمعت بين التصوف والعلوم الشرعية واللغة على حد سواء مثل أسرة عبد القادر بن المختار جد الأمير وأسرة الورثيلاني وأسرة الفكون وغيرها كثير.

لذا البيوتات العلمية في هذا العهد هي التي جمعت بين تدريس الفقه والتأليف فيه و التصوف فكان هذا معيار الأسر التي وجب دراسة تاريخها والإقتداء بها، بخلاف البيوتات الدينية التي غلب عليها التصوف المبني على الوراثة وإن كانت انطلاقة بعضها علمية فقهية لكن الخلف أهمل ما عمل به السلف فلا يمكن إدراجهم في الأسر العلمية.

ثالثا: تاريخ ظهور البيوتات العلمية:

[20] المرجع نفسه، ج1، ص462.
[21] المرجع نفسه، ج1،ص398.
[22] فوزية لزغم، المرجع السابق، ص40 بتصرف.

يختلف تاريخ ظهور البيوتات العلمية بحسب المنطقة، فظهورها في الأندلس مثلا كظاهرة علمية تسبق مما في بلاد المغرب الإسلامي تاريخيا، ربما يعود للزخم العلمي والحضاري العالي الذي امتازت به الأندلس عن بقية بقاع افريقية من جهة ومن جهة أخرى كون الفتح الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية امتاز بظهور أسر وقبائل بعينها قد قادت الفتح ثم حكمت بعد ذلك، والذي يهمنا أن المسلمين بالأندلس لما أمنوا فيها أقبلت طائفة منهم على العلم الشرعي فقطعوا لأجله المسافات إلى المشرق فحصلوا زادا عظيما جلبوه للأندلس ومنهم من حرص على اصطحاب أبنائه لطلب العلم والسماع على المشايخ وبهذا كانت البذور الأولى لظهور الأسر العلمية في هذه البلاد، "ومن أقدم هذه الأسر بيت الغازي بن قيس الذي توفي سنة199ه "[23]وبالتالي كان ظهور أقدم أسرة علمية بالأندلس في القرن الثاني هجري -فنبغ من بعده ابنه عبد الله ومن ثم حفيده محمد - "ثم يليه بيت يحيى بن يحيى الليثي 233ه ثم يليه بيت بقي بن مخلد279ه"[24] فهذه كانت أقدم البيوتات وأولها في الأندلس استنادا على سنة وفاة مؤسسيها.

أما في المغرب الأوسط فظهور البيوتات العلمية فيه مرتبط بالزخم الحضاري الذي رافق العصر المرابطي والعصر الموحدي عموما ففي قسنطينة مثلا بدأ ظهور البيوتات مع العهد الموحدي ذلك لما شهدته من حياة علمية نشطة قادها رجالها وعلماؤها الذين اشتهروا بالوظائف والتدريس والتأليف واستمر ذلك حتى زمن الحفصيين الذي يعد العصر الذهبي لهذه المدينة فنبغت فيها بيوت منها: بيت ابن قنفذ وابن باديس، ابن الفكون وغيرها، وفي تلمسان مثلا" قد شهدت عهد التأسيس الحضاري الراقي على يد يوسف بن تاشفين سنة475ه مع بناء مدينة تاجرارت خاصة مسجدها الأعظم فصارت بذلك قطبا لطلاب العلم والعلماء وازدهار الفكر والفقه والتفسير والحديث حتى زمن الموحدين الذي عاشت في نكسة علمية في بداياته ثم ما لبثت أن قامت من جديد وبعد قرن ونصف القرن على الحكم المرابطين والموحدين دخلت مرحلة الازدهار العلمي الذي جعلها منارة للعلم شرقا وغربا على يد الزيانيين"[25] ومن البيوتات الأولى:

"بيت ابن مرزوق الذي قد استقر مؤسسه مرزوق العجيسي بتلمسان حوالي ال475ه وبيت ابن صاحب الصلاة الذي نبغ القاضي أبو عمرو عثمان بن صاحب الصلاة وترفي في منتصف ق6ه، وبيت المقري مع استقرار جدهم عبد الرحمان في أواخر ق6ه وبدايةق7ه ، وبيت بن هدية الذي نبغ ابناؤه مع بداية القرن7ه"[26] لذا عموما كان ظهور البيوتات العلمية كظاهرة علمية في تلمسان مع القرن 6ه زمن الموحدين.

---

[23] أمحمد بوشريط، ظاهرة البيوتات الأندلسية ودورها الثقافي 300ه-460ه/912م-1067م، -رسالة دكتوراه- قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران -الجزائر-، 2011م-2012م، ص56.

[24] المرجع نفسه، ص56.

[25] نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص13.بتصرف

[26] المرجع نفسه، ص14-16. بتصرف

رابعا: عوامل نشأتها و ازدهارها.

هناك عدة عوامل ساهمت في ظهور هذه البيوتات وازدهارها وجعلها على ما كانت عليه، ومن أهم هذه العوامل:

1- العامل العلمي:

- **عنايتهم بتلقين أبنائهم العلم:**

كان العلماء رحمهم الله يستلذون العلم ويحرصون على تبليغه ونشره وتوريثه تقربا من الله تعالى وحتى يكون لهم بذلك صدقة جارية تنفعهم بعد وفاتهم، هذا من جهة ومن جهة أخرى قد حرصوا أشد الحرص على توريث ذلك لأبنائهم لينالوا الشرف والقرب من الله تعالى إقتداء منهم بسيدنا إبراهيم عليه السلام لقوله تعالى: {**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** } [البقرة: 124] فسيدنا إبراهيم عليه السلام حرص على توريث النبوة حتى تكون بذلك عائلته أقرب وأفضل بيت عبد الله تعالى لذا فسيدنا إبراهيم عليه السلام كان أول من أراد تأسيس بيت يجمع النبوة والعلم والقرب من الله تعالى، وعلماؤنا رحمهم الله لم يكونوا عن هذا المعنى غافلين فاهتموا بتربية وتعليم ذريتهم وملازمتهم ومن ذلك ملازمة الشيخ أحمد البوني لوالده الشيخ قاسم وقراءته عليه وهو ما أكده في ثبته بقوله: " وكنت لا أغيب عنه حضرا ولا سفرا، ليلا ونهارا..... إلى أن يقول: اعلما رحمكما الله أن لي في علم الحديث وغيره أشياخا كثيرين متقنين متقين محررين... من أجلهم سيدي الوالد رحمه الله تعالى...الشيخ الإمام العالم الصوفي الوفي الهمام...سيدي ومنهجي أبو الفضل قاسم بن الأستاذ الشهير الأنور ...أبي عبد الله محمد لقب ساسي البوني التميمي رحمه الله تعالى"[27] .

وقد تتلمذ الشيخ أحمد المقري على عمه سعيد وتتلمذ محمد قدورة على والده سعيد ولم تكن هذه الحال خاصة بالرجال منهم بل تعدت النساء فذكر الورثيلاني أن جده سيدي يحيى: " كانت عنده بنتان كل واحدة منهما نسخت التوضيح وكذا السيدة عودة بنت الشيخ محمد بن علي أبهلول المجاجي كانت تدرس بزاوية أبيها بمجاجة" [28] كما أشار رحمه الله إلى زوجته عويشة بنت الشيخ عبد الله رحاب... ووصفها بالطالبة بقوله: وقد تزوجت ابنته الفاضلة الحرة الشريفة الطالبة عويشة. ووصفها في موضع آخر أنها تقرأ نحو الربع، وتحفظ بعض الأذكار كوظيفة الشيخ زروق، وكانت تحفظ الصغرى للشيخ السنوسي وكذا بعض الرسالة لأبي زيد"[29] وهذا دليل على علمها ومكانتها في ذلك الزمن.

والخلاصة أن حرص الآباء على تلقين الأبناء هو من باب اهتمام الشيخ المربي وعطفه على تلامذته من جهة ومن جهة أخرى حرص الوالد على تلقين أبنائه و رغبته في تفوق ذريته

---

[27] فوزية لزغم، البيوتات و الأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني، المرجع نفسه، ص394.

[28] فوزية لزغم،المرجع نفسه، ص 392-393.

[29] فوزية لزغم،المرجع نفسه، ص393.

على أقرانهم، فكان الأبناء يتلقون العلم ممزوجا بروح الآباء الحريصة على استمرارية مجد وشرف بيتهم فكانت هذه هي التركة التي حركتهم جيلا بعد جيل.

- **التنافس بين الأسر العلمية:**

فهذا العامل من أهم العوامل وأقواها ذلك أن كل بيت يدافع عن مجده وشرفه وحضوره في الساحة لا يسمح لغيره بإزاحته عن المشهد مما جعل الكل يحرص على الطلب والإكثار منه فكانت المنافسة بينهم على قدم وساق فهي معركة إثبات الذات، والجدير بالتنويه أن هذه المنافسة تمثلت في شكلين هما:

المنافسة العلمي النبيلة التي تجعل العالم والأسرة بأكملها تزداد في طلب العلم وتعليمه وتوريثه دون إفساد العلاقة مع بقية البيوتات، وهذا عين الصلاح والخير و الشرف وهو شهادة لرفعتها وعلو همتها وصلاح أبنائها فلا يفسد ذلك انتقادها لبعضها مثل علاقة بيت الفكون ببيت ابن باديس وعلاقة بيت الفكون ببيت الساسي البوني، رغم أن الشيخ عبد الكريم الفكون انتقد محمد ساسي البوني نقدا لاذعا في كتابه "منشور الهداية" إلا أنه زار بيته أثناء الزيارة التي أخذته إلى بونة- عنابة اليوم- ، كما زارها ابنه محمد، ولهذا قال البوني: " وقد قلت في الألفية في شأن من ذكر –محمد- ووالده الشيخ العلامة المؤلف البركة المزار سيدي عبد الكريم إذ شكر، لأنهما دخلا بلدنا، ودعوا لنا ولأولادنا..."[30].

أما الوجه الثاني لهذه المنافسة هي التدافع على المناصب والامتيازات وتحصيل العلم من أجل المكانة المرموقة، فهذا مما أساء لهذه الأسر وساهم في إفساد نياتها بعدما كانت نورا يهتدي به الناس، ومن تلك الحوادث " ما رواه الفكون أن محمد بن نعمون كان يتنافس مع أحمد بن باديس على الرياسة وأحوال الدنيا وبلغ به الأمر أن سعى هو -ابن نعمون- وجماعته بابن باديس إلى باشوات الجزائر وكتبوا سجلات ووصفوه بأمور لا يحل الوصف بها ولا الخوض فيها إلى أن أجبروه على التوجه إلى العاصمة شخصيا حيث غرمه الباشا وسجنه. ولكن هذه الحادثة التي يبدو أن النصر كان فيها لابن نعمون وجماعته قد انقلبت ضده. ذلك أن الصراع قد انتهى بعودة ابن باديس إلى الإفتاء واستقلاله به وعزل ابن نعمون عنه، بل إن العثمانيين في قسنطينة قد اتخذوا إثر ذلك قرارا لعله كان بطلب من ابن باديس نفسه وهو ألا مفتي إلا ابن باديس"[31].

لكن الذي يهمنا أن التدافع بين البيوتات كان له الأثر الإيجابي في إستمراريتها ودوامها، رغم ما كان من خلاف بين بعضها لكن لا يقدح في تاريخها لأن ما جمعهم أعظم مما فرقهم، فجمعهم الدين والمصاهرة فرحمهم الله تعالى أجمعين.

العامل السياسي:

- **الجو الثقافي المزدهر الذي وفرته المنافسة السياسية بين دويلات المغرب الإسلامي:**

---

[30] أحمد البوني بن قاسم، الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، تح: سعد بوفلاقة، منشورات نؤسسة بونة للبحوث والدراسات، ط2007،01م ص147.

[31] أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ج01، ص403.

مما أثر بصورة مباشرة على العلماء من خلال تقديمهم في البلاط واستقطابهم للدولة حتى تكون لها بهم الشرعية الدينية من جهة ومن جهة أخرى بوجود بعض الملوك ذوي علم وثقافة واسعة "كالسلطان الحفصي أبي زكرياء الأول(625ه-647ه/1227م-1249م) الذي اشتهر بالأدب و الشعر، وكان يجالس طلبة العلم ويشاركهم أحسن مشاركة "[32].

بالإضافة إلى الاعتناء بالمؤسسات التعليمية و الدينية وتشجيع التأليف وإنشاء المكتبات والمراكز الدينية وكذا دعم الدولة آنذاك للعلماء وتقويتهم "كما فعلت الدولة الحفصية مع قسنطينة فكانت تعتبر في زمنهم العاصمة الثانية لدولتهم سياسيا واقتصاديا"[33] مما انعس إيجابا على النشاط الفكري فكثرت الكتاتيب و المساجد و الزوايا، فنشأ بذلك علماء كثر تركوا ميراثا علميا هائلا لأبنائهم ولأهل منطقتهم.

ومن الأمثلة على "المسؤولين الذين شجعوا على حركة النسخ والاستنساخ زمن العثمانيين الباي محمد الكبير، فقد شجع الطلبة وكتابه الخصوصيين على اختصار الكتب المطولة ونسخ بعض الكتب الأخرى له، وكان يجيز كل واحد منهم بسخاء حسب عمله وجهده، وقد أمر بعضهم بجمع فتاوي العلماء ... وقام مؤلف الثغر الجماني-ابن سحنون- باختصار كتاب الأغاني في نحو ثمانين كراسة، وباختصار طب القاموس وزاد عليه من كلام الأطباء، وأمر الباي بعض كتابه أيضا، وهو محمد المصطفى بن زرقة، بتقييد حوادث الجهاد التي كانت تجري بين الجزائريين والإسبان"[34].

- **<u>علاقتهم بالدولة وتقلدهم لمناصبها:</u>**

كما قدمت من قبل كون أحد أركان البيوتات العلمية أن تكون ذات شرف ومجد تحمد به بين الناس، فمكانتهم العالية وكلمتهم المسموعة بين الناس قد خطفت انتباه السلطة الحاكمة تاريخيا لأن أصحاب البيوتات قد تربوا على يد آبائهم وأخذوا عنهم الفصاحة والعلم ومبادئ التسيير وسياسة الناس وتدبير شؤونهم، لذا اهتمت الدولة بهم وحرصت على إرضائهم واستمالتهم للاستعانة بهم في حكم المناطق التي تعيش فيها هذه الأسر من ذلك استعانة العثمانيين ببيت الفكون لدخول قسنطينة وحكمها بل حتى أنها جعلت تلك المناصب وراثة فيهم من ذلك كان الفكون الجد أول من تولى وظيفة الإمامة والخطابة والفتوى بالجامع الكبير "جامع البطحاء" في العهد العثماني ولما توفي الفكون الجد عام988ه/1580م خلفه ابنه محمد في إمامة الجامع الكبير بأمر من جعفر باشا أواخر عام1581م ...خلفا لوالده المتوفي ...-والذي صرح- بتخويله كل

---

[32] علال بن عمر، الحركة العلمية وبيوتات العلماء في مدينة قسنطينة من القرن7هـ-10هـ -رسالة ماجستير-، إشراف عبد العزيز فيلالي، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسنطينة، 2001 ،ص100.

[33] فيلالي عبد العزيز، جوانب من الحياة الثقافية والفكرية لمدينة قسنطينة في العهد الحفصي، مجلة سيرتا، معهد العلوم الإجتماعية، العدد10، جامعة قسنطينة، الجزائر،1988م،ص13.

[34] أبو القاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج01، ص292.

السلطات المطلقة لإدارة أموال المسجد الكبير ... ولا أحد يعترض على ما يراه مناسبا لا الموظفين في المسجد ولا القضاة وممثلي سلطتها ولا إدارة الحبوس ولا أحد آخر" [35].

وتوسعت العلاقة إلى تقليد هذه البيوتات بعض السفارات ومن أقدمها سفارة محمد بن علي الخروبي الطرابلسي إلى المغرب أكثر من مرة مبعوثا من باشوات الجزائر إلى سلاطين المغرب لتحديد الحدود وتأمين العلاقات بين البلدين[36].

وكذا الاستعانة بهم في إطفاء التمرد كما" فعل يوسف باشا. فقد تبادل هذا الرسائل مع بعض علماء عنابة مثل محمد ساسي البوني، وملخص إحدى هذه الرسائل أن هذا الباشا يقدر البوني كثيرا ويعرف مكانته في بلده ولذلك أطراه وأشاد به وطلب معونته، و التدخل لجلب طاعة الرعية، وذلك أثناء محاولة الباشا القضاء على ثورة ابن الصخري وقد رد محمد ساسي البوني على الباشا مبديا استعداده للتعاون ولكنه طلب العفو على أهل عنابة. وتؤكد المراسلات أن الباشا قد استجاب لطلب الشيخ لمكانته عنده وفي قومه"[37].

"ونحب أن نضيف إلى ذلك أن أسرة الفكون هي التي انتصرت للباشوات أيام ثورة ابن الصخري، وكذلك عند تمرد صالح باي وأثناء فتنة ابن الأحرش، وقد استحق رئيس عائلة الفكون وقت هذه الفتنة ثناء الباشا عندئذ، فراسله بهذه العبارات (إلى العالم الأشهر .. العارف بجميع الفنون. نستكثر خيرك من شأن وقوفك وصيانتك للبلاد، ونصحك وحمايتك للعباد .. ثم نلتمس منكم الدعاء الصالح، الجالب لنا ولكم كل المنافع والمصالح ... كما أرسل الباشا إلى علماء قسنطينة يطمئنهم ويأمرهم بالوقوف والالتفاف حول الشيخ الفكون"[38] .

وكثيرا ما التجأ الحكام إلى الأسر العلمية في الأوقات الحرجة طالبين منهم الرأي وتجنيد العامة وهي المناسبات التي كانت فيها تزداد قوة الأسرة مما يشعرها أن لها دورا هاما ليس في الجانب الاجتماعي فقط بل حتى الجانب السياسي، لذا السلطة السياسية تحالفت مع البيوتات لتحقيق الاستقرار السياسي في مقابل توريثها بعض الوظائف كالوزارة والقضاء والإفتاء مما ساهم بشكل مباشر في تقوية هذه البيوتات وتعزيز إستمراريتها.

فأبناؤهم نشؤوا في جو من العلم والأدب مع ما يتلقونه من تجارب آبائهم وسيرهم في تسيير مناصبهم بالإضافة إلى ما حققوه من المكانة في كنف الدولة كل هذا حصل لهم الأولوية في التوظيف من جهة ومن جهة أخرى كانت المناصب إحدى الضمانات الأساسية للحفاظ على شرف الأسرة وتفوقها، لذا حرصت كل الحرص على تقليد أبنائها هذه المناصب مثل"احتكار بيت

---

35 جميلة عثماني، خدوجة مبخوتي ، المرجع السابق، ص60.

36 أبو القاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق ،ج01، ص223.

37 المرجع نفسه، ج1، ص412.

38 المرجع نفسه ، ج1، ص416.

قدورة للإفتاء المالكي بالجزائر لأزيد من قرن، فسعيد قدورة قد أناب عنه ابنه محمدا، رغم صغر سنه، في الخطابة بالجامع الكبير. وبعد وفاته أصبح محمد هو المفتي الرسمي وظل في ذلك الوظيفة حوالي أربعين سنة ثم خلفه أخوه أحمد وهكذا وولي آل فكون الإمامة والخطابة بجامع البطحاء بقسنطينة منذ القرن10ه إلى زمن الاحتلال الفرنسي واحتكار آل ابن باديس للخطابة بجامع القصبة بقسنطينة لمدة طويلة وكانت عائلة ابن العنابي تتوارث الإفتاء والقضاء خلال قرن من الزمن"[39].

فكانت هذه الحال من عوامل ازدهار هذه الأسر رغم أن هذه الظاهرة لم تكن صحية دائما لأنها كانت تقتل النخب العلمية والنوابغ الفذة من خارج هذه البيوتات من ذلك "لما عاد الشيخ حمودة المقايسي من مصر ظنا منه أنه سيجد الجو مناسبا للدرس ونشر العلم والعيش الكريم، تخلى عن ذلك واكتفى بصناعة المقايس (الأساور) ليعيش منها لأنه وجد أن المتصلين برجال الدولة هم فقط أصحاب الحظوة"[40] وليس ذلك فقط بل وأدخلت هذه الأسر العريقة في دائرة ضيقة لا تليق بتاريخها.

ورغم ذلك فهذه العلاقة بين الدولة و البيوتات لم تكن دائما علاقة حلف وتشارك بل كانت أحيانا علاقة صراع وتشاجر "كثورة درقاوة في غرب البلاد وشرقها وانضمام مقدم الطريقة الرحمانية في نواحي قسنطينة إلى الثورة مما أدى إلى عواقب سيئة على العثمانيين في الجزائر... فلأول مرة وقع تحد قوي لسلطتهم منذ عهد بعيد. ونظرا إلى أن القائمين بالثورة كانوا من رجال الدين ومن مديري المعاهد أو الزوايا فإن العثمانيين قد أخذوا منذ ذلك الحين يتوجسون خيفة من أصحاب الطرق ويتتبعون أخبارهم وحركاتهم. وقد انعكس هذا حتى على الطرق الأكثر قربا منهم والتي كانوا قد ساندوها وساعدوها على الانتشار كالطريقة القادرية"[41]في معسكر فرغم "التقارب طويل بين البايلك وبيت مصطفى بن مختار جد الأمير، تغيرت الأمور بينهما من خلال تجرأ الباي حسن على الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر، رغم كونه رئيسا لأكبر زاوية تابعة للطريقة القادرية، فقد كان الباي يتحين الفرصة للإطاحة به وبأسرته...فبعد القضاء على ثورة ابن الشريف الدرقاوي ذهب محي الدين إلى وهران لتهنئته بانتصاره فأكرم الباي نزله وأعظم وفادته ولما خرج من عنده قال لجلسائه: نحن لا نخشى من ابن الشريف وأمثاله إنما نخشى من صولة هذا – مشيرا إلى الشيخ محي الدين. إذ لم يكن الدرقاوي من بيت علم بارز وستتأكد هواجس السلطة من مكانة محي الدين من خلال فرضها الإقامة الجبرية عليه عندما أراد الحج بسبب كثرة مريديه والناس الذين أرادوا الحج معه فخافت السلطة الحاكمة من أن يتحول ذلك التجمهر الضخم إلى ثورة ضدهم"[42].

---

[39] جميلة عثماني، خدوجة مبخوتي، المرجع السابق، ص400.

[40] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق ، ج01، ص419.

[41] أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج01، ص223.

[42] أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه،ج01، ص492.

لذا كانت المصلحة المتبادلة عاملا أساسيا في الحفاظ على هذه الرابطة وازدهار الطرفين بينما كان الصراع الذي اندلع بين السلطة الحاكمة وبعض هذه البيوتات دليلا واضحا على شدة تجذر هذه الأسر وقوتها وسلطانها على الناس ولذلك كان من شروط الأسر العلمية أن تكون لها الهيبة والكلمة في مناطقها وإلا لم تعد من الدور العلمية.

العامل الاقتصادي:

وهذا العامل هو تابع للعامل السياسي ونتيجة مباشرة له فمصادر ثروة هذه البيوتات مختلفة منها العقارات التي اقتطعتها لها الدولة وكذا المناصب العليا التي انفردت بها هذه الأسر ، و منها ما اكتسبته بسبب تعاطيها للعلم من خلال عطايا الحكام تشجيعا لطلبة العلم عموما وحفاظا لعلاقتها مع البيوتات العلمية خصوصا ، بالإضافة إلى الامتيازات الممنوحة لهم مثل التي كانت ممنوحة لعبد الكريم الفكون الحفيد:" قيادة بعثة الحج مع الحق الكامل في اختيار أعضاء القافلة والاستفادة من هذه المهمة ماديا بقدر الإمكان، وإدارة جميع أوقاف الجامع الكبير الهائلة بدون مراقبة ولا محاسبة، وإعفاء جميع الأوقاف التابعة للعائلة وجميع أملاكها في المدينة وفي الريف من الضرائب ومن كل الغرامات... جميع من يلتجئ إلى العائلة، سواء في المنزل أو غيره، ولو خارج المدينة، مصون لا يتعرض لأي عقوبة ولو ارتكب أكبر جريمة. وكل من مد شيخ الإسلام يده لحمايته لا يجوز التعرض له. كما أن لشيخ الإسلام الكلمة العليا في تطبيق الشريعة الإسلامية والسهر عليها"[43].

ومن هذه البيوتات أيضا بيت بني يحيى الليثي، فأثناء طلبه للعلم رغب عن مال أبيه وزهد فيه، إلا أنه استطاع بعلمه جمع ثروة، فعند فراره هو وأخوه من قرطبة صحب معه ثروته من المال والعبيد ومما يدل على عظم ماله أنه كان يرفض العطايا، ولم تغب هذه الثروة عن أبنائه من بعده بل استمرت من بعده.

عامل الهجرة:

فهذا عامل خفي ذلك أن كثيرا من هذه البيوتات كانت في الأصل من خارج البلاد التي عرفت فيها فبيوتات الأندلس كلها من خارج الجزيرة الأيبيرية بحكم أنها بلاد جديدة فهاجر إليها العرب والبربر واستوطنوها ثم اطمأنوا فيها وعمروها وقادوا حركتها العلمية أبا عن جد ولا يختص هذا بالبيوتات العلمية فقط بل تعداه إلى بيوتات الحكم والمال.

أما المغرب الأوسط فلم يكن بعيدا عن هذا التأثير فنجد بيت ابن مرزوق مثلا جاء جدهم مهاجرا من القيروان وبيت المقري أن جدهم قدم من مقرة وهي منطقة بالمسيلة اليوم فقدم تلمسان واستقر بها في أواخر القرن6ه وبيت ابن صاحب الصلاة استقر بتلمسان مع فترة هجرة القبائل العربية نحو بلاد المغرب ق5ه وبيت ابن قنفذ الذي قدم إلى قسنطينة من ميلة...وغيرها كثير.

[43] أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه،ج01، ص521.

فهناك من قدم رغبة في الجو العلمي وتشجيع الدولة كبيت ابن مرزوق الذي قدم من الأندلس زمن المرابطين، لما أرادوا جعلها منارة للعلم ومن ذلك رحلة يغمراسن بن زيان إلى تنس إلى الشيخ إسحاق إبراهيم التنسي (666ه/1268م) حيث قال له:ما جئتك إلا راغبا فيك أن تنتقل إلى بلدنا وأن تنشر فيها العلم وعلينا جميع ما تحتاج"[44].

و هناك من هاجر مرغما كـ: "أحمد التجاني الذي رحل إلى المغرب، كما فر الشارف بن تكوك إلى المغرب ومحمد بن علي السنوسي إلى المشرق" [45] والإمام الونشريسي إلى المغرب الأقصى.

فتتعددت أسباب الهجرة لكن النتيجة واحدة، خاصة عندما تجد الأسرة الجو العلمي المساعد فإنه سيساهم في تقويتها ونضجها.

خامسا: خصائص البيوتات العلمية:

- **خصائص علمية:**

1- **المذهبية:** فهذه الأسر العريقة هي أسر مالكية بامتياز، خدمت المذهب ونصرته وعملت على توطيد أركانه في بلاد المغرب الإسلامي، حتى أنك لا تجد أيا منها قد خرج عن المذهب سواء في التدريس أو التأليف أو الفتوى والأمثلة عن ذلك كثيرة جدا، فكونك أحد أبناء هذه البيوتات يعني بالضرورة أنك مالكي بالفطرة.

2- **الواقعية:** وهذه الخاصية نلمسها في فتاوى علمائنا عموما وأهل البيوتات خصوصا فالواقعية في فقه هذه الأسر ليست وليدة عندهم بل هي مستمدة من المذهب المالكي المبني أساسا على ما نزل بالناس أو الغالب على الظن وقوعه، فتجد فتاويهم معالجة لواقع معيش بعيد عن الافتراض من ذلك ما ألفه الشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد محدد السنان في نحور إخوان الدخان مهاجما متناولي الدخان ومن أفتى بكراهيته كالشيخ الجهوري معالجا بذلك ظاهرة اجتماعية في زمنه، وكذا في كتابه منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية فتكلم عن العلماء و الصالحين وبين صفاتهم وأحوالهم ثم ختم بفصل حول الدجالين مدعي التصوف الذين يستغلون التصوف ويكذبون به على الناس فتطرق رحمه الله إلى ظاهرة كانت تنخر مجتمعه فوضح للناس الصحيح من الفاسد ليكونوا على بصيرة من أمرهم.

3- **إعمالهم للعرف والعادة:** وهو نتيجة للخاصية السابقة فهم رحمهم الله سهلوا الدين للعوام، فاعتبروا أعرافهم وعاداتهم مالم تخالف الدين، فكان مبدؤهم في ذلك **التيسير والابتعاد عن التشديد**.

4- **التجدد المستمر:** ففقههم رحمهم الله متجدد فتجد بعضهم لا يتلقى الفقه إلا مع التمحيص والنقد ومن ذلك الشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد "الذي قرأ في صغره شرح اللطيف المسبح على مختصر الأخضري في الآداب العامة، وقد انتقد

[44] نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص159.
[45] أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج01، ص223.

طريقته ورأى أن يقوم هو بوضع شرح جديد للمختصر المذكور سماه((الدرر على المختصر)) "[46] .

5- **كثرة التأليف:** من مميزات هذه الأسر العريقة أنها تناولت التأليف في شتى الميادين من الفقه والتصوف واللغة والعقيدة و حتى الرحلات والأسفار ومن ذلك الشيخ أبو عبد الله العقباني صاحب كتاب القواعد و، عمل من طب لمن حب، المحاضرات، الحقائق والرقائق، وأبو عبد الله الشريف صاحب مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، وابن مرزوق الخطيب صاحب جنى الجنتين في فضل الليلتين يقصد ليلة القدر وليلة المولد وكتاب برح الخفاء في شرح الشفا.

- **خصائص اجتماعية:**

1- **امتلاكها للسلطة الدينية (المرجعية الدينية):** كانت هذه البيوتات تمثل المصدرية الأولى للفتوى دون منازع بالنسبة للسلطة الحاكمة أو العامة، أما السلطة الحاكمة فلكونها اعتمدت عليهم بشكل أساسي في مناصب القضاء والإفتاء حتى تكتسب القرارات الصادرة عن مؤسساتها قوة و مصداقية بين الناس، أما العوام فكانوا لا يسألون من هب ودب عما نزل بهم كيومنا هذا، بل تم تعليمهم وتوجيههم ألا يستفتوا سوى أهل العلم خاصة هذه الأسر التي يوثق في سندها العلمي الموروث وثانيا لما لها من المكانة العالية في وجدان العوام، لأنهم ملئوا الساحة العلمية بقوة فلما زالت هذه الأسر زمن الاستعمار الفرنسي صار هذا الفراغ العلمي الهائل الذي نعاني منه اليوم، و المتتبع لدورة حياة هذه البيوتات في المغرب الأوسط يجد أن بداية ظهورها كان زمن المرابطين والموحدين وكانت مناصب الفتوى والقضاء في ذلك الزمن تعتمد على الكفاءة العلمية ثم تلتها مرحلة الازدهار زمن دويلات المغرب الإسلامي فكان أساس التوظيف الكفاءة العلمية مع الولاء لتلك الدول، ومن هنا بدأت هذه البيوت بأخذ مكانتها في الدولة والمجتمع كطرف لا غنى عنه، ثم تلتها مرحلة القوة والنفوذ في بداية العهد العثماني الذين اعتمدوا عليهم بشكل كبير في حكم الجزائر شرقا وغربا و أعطتهم المناصب العليا في الدولة وجعلتها وراثة في أبنائهم لكسب احترام الناس وولائهم، فصارت هذه الأسر الممثل الشرعي للدين عموما والمذهب المالكي خصوصا بعدما كانت مؤسسات الدولة من القضاء والمساجد هي المصدر لذلك، لكن مع احتلال هذه البيوتات للساحة العلمية صارت الشرعية الدينية تبعا لهم أينما حلوا وارتحلوا.

2- **التوريث:** و هي تحصيل حاصل لما قبلها، فمما تميزت به هذه البيوتات توريث العلم الشرعي لأبنائهم وحرصهم الشديد على تفوقهم العلمي حتى تكون لهم الحظوة بين الناس من جهة، ومن جهة أخرى عملوا كذلك على توريثهم للمناصب الدينية لضمان استمرارية بقاء العائلة لأن العلم إن لم يمارس ضاع وإن لم يوصلك إلى أعلى المناصب أضاع لك ما بناه آباؤك، ففهم القضية أبناء هذه الأسر وأدركوا أن من الضمانات الكبرى لإستمراريتهم هي توريث مناصبهم، خاصة مع قلتها.

[46] جميلة عثماني، خدوجة مبخوتي، المرجع السابق، ص39.

3- **الطابع الحضري والمدني:** قد ذكر أبو القاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي قضية الصراع الواقع بين علماء الحضر والريف، فالحضر يتهمون الريف بقلة العلم والريف يتهم الحضر بتوليهم لمناصب القضاء والإفتاء وراثة دون كفاءة علمية، وقد قسمت البيوتات إلى دينية وأخرى علمية صوفية والغالب أن الأولى مقرها الأرياف أما الثانية فمقرها المدن وقد أشرت أن الثانية هي المقصودة بمصطلح الأسر العلمية في تلك الفترة، ذلك أن الحواضر كانت تستقطب العلماء من كل صوب، لذا كان الزخم العلمي موجودا فيها بكثرة مما انعكس إيجابا على المنتوج العلمي و أدى إلى بروز علماء جدد بخلاف الأرياف التي وإن وجد فيها بعض الأسر العلمية لكنها قليلة كأسرة الوثيلاني مثلا، لكن الغالب أن الدور العلمية هي دور حضرية وليست ريفية وإن كان أصل بعضها الأرياف لكنها نبغت في المدينة.

الخاتمة:

في ختام هذا البحث توصلت للنتائج التالية:

- مصطلح البيوتات العلمية يطلق على الأسر التي توارثت العلم أبا عن جد وجمعت بين الجاه والعلم الشرعي.
- تنقسم الأسر العلمية إلى بيوتات كبرى وهي ما كان فيها أكثر من ثلاثة علماء متتاليين، و بيوتات صغرى ما كان فيها ثلاثة علماء فأقل.
- يختلف مدلول البيوتات العلمية على حسب الفترة التاريخية فقبل العهد العثماني كانت تطلق على الأسر التي نبغ أبناؤها في العلوم الشرعية فقط، أما في العهد العثماني فامتازت بجمعها للعلوم الشرعية مع التصوف.
- هناك نوعان البيوتات في العهد العثماني: بيوتات دينية صوفية اهتمت بالجانب السلوكي وخدمة الطرق الصوفية و الزوايا والمرابط على حساب الفقه واللغة وغيرها و بيوتات علمية صوفية فجمعت بين العلوم الشرعية واللغة وكذا علم التصوف وهي من تسمى بالأسر العلمية في ذلك الزمن.
- ساهم في نشأة هذه البيوتات وازدهارها عوامل علمية تمثلت في عناية العلماء على تلقين أبنائهم وتكوينهم وكذا المنافسة العلمية الشديدة بين هذه الأسر وعوامل سياسية تمثلت في الجو الثقافي المزدهر الذي وفرته المنافسة السياسية بين دويلات المغرب الإسلامي، ومساهمة الدولة في تشجيع هذه الأسر و تقليدهم لمناصبها العليا وجعلها ميراثا في أبنائها، والعامل الاقتصادي المتمثل في الأريحية المادية التي كانت تعيشها هذه الأسر مما جعلها تهتم بالعلم بدل الاشتغال بالعمل لجلب القوت من جانب ومن جانب آخر الاجتهاد في التحصيل للمحافظة على الامتيازات المادية الممنوحة من طرف السلطة الحاكمة، وختاما بعامل الهجرة كون معظم هذه البيوتات ليست من المنطقة التي نبغت فيها بل هي وافدة إليها.
- تميزت هذه البيوتات بعدة **خصائص علمية:** المذهبية، الواقعية، إعمالهم للعرف والعادة، التجدد المستمر،كثرة التأليف **وأخرى اجتماعية:** امتلاكها للسلطة الدينية(المرجعية الدينية)، التوريث، الطابع الحضري والمدني.

قائمة المصادر والمراجع:

المراجع اللغوية:

- ابن منظور أبو الفضل محمد بن مكرم بن على الأنصاري الرويفعى، لسان العرب، تح:عبد الله علي الكبير، دار المعارف، القاهرة .
- عطية شعبان عبد العاطي وآخرون، المعجم الوسيط، القاهرة، مكتبة الشروق العربية، 2004.
- الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط، تح: محمد نعيم قسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، لبنان، 2005.
- الزمحشري، أساس البلاغة، تح: عبد الرحيم محمود، بيروت دار المعرفة، دت.
- زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، مختار الصحاح، بيروت، دائرة المعارف، 1986.

البحوث المعاصرة:

- أبو القاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر للنشر والتوزيع- الجزائر- 2007 م.
- جميلة عثماني، خدوجة مبخوتي،البيوتات العلمية ودورها السياسي في الجزائر العثمانية بيت الفكون أنموذجا 1815م-1837م،(مذكرة الماستر) ، تخصص: التاريخ الحديث والمعاصر، قسم العلوم الإنسانية، كلية كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أحمد دراية أدرار- الجزائر- .
- عبد الرحمان الشعلان، أصول فقه الإمام مالك –أدلته النقلية-، ط1، جامعة الإمام محمد بن سعود، 2002.
- علال بن عمر، الحركة العلمية وبيوتات العلماء في مدينة قسنطينة من القرن7هـ-10هـ - رسالة ماجستير-، إشراف عبد العزيز فيلالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، 2001 .
- فوزية لزغم، البيوتات و الأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي1520م-1830م، أطروحة دكتوراه تخصص التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2013م-2014م.
- محمد المامي، المذهب المالكي، مدارسه ومؤلفاته وخصائصه، الإمارات المتحدة، مركز زايد للتراث، ط1، 2002.
- محمد المنوني، حضارة الموحدين، ط1، الدار البيضاء، دار توبقال، 1989.
- نصر الدين بن داود، بيوتات علماء تلمسان من القرن7ه إلى القرن10هـ، أطروحة دكتوراه،قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية و العلوم الإجتماعية، جامعة أبوبكر بلقايد-تلمسان- 2009م/2010م.

المقالات:

- فيلالي عبد العزيز، جوانب من الحياة الثقافية والفكرية لمدينة قسنطينة في العهد الحفصي، مجلة سيرتا، معهد العلوم الإجتماعية، العدد10، جامعة قسنطينة، الجزائر،1988م.
- الطاهر بونابي، بيت ابن باديس في العصر الوسيط، مقال، دت.

الكتب القديمة المحققة:

- أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط02، 1408 هـ - 1988 م.
- أحمد البوني بن قاسم، الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، تح: سعد بوفلاقة، منشورات نؤسسة بونة للبحوث والدراسات، ط01، 2007.
- البخاري، الأدب المفرد، تح: سمير بن أمين الزهيري، دار البشائر، بيروت، ط3، 1989.
- البرزلي، نوازل البرزلي، تحقيق: محمد الحبيب هيلة، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2002.
- عبد الكريم بن هاشم الكتاني، زهر الآس في بيوتات أهل فاس، تح: علي بن المنتصر الكتاني، منشورات النجاح الدار البيضاء، دط، 2002.